من علم الكلام إلى فلسفة الدين

هاني محمد عبد الفتاح(*)

تولّد علم الكلام الإسلامي كحاجة عقدية للرد على إشكالات وعقائد وأفكار وفلسفات مضادة، منها ما هو «خارجي»؛ كالذي وفد عن طريق التلاقح الحضاري من شعوب وأديان أخرى مختلفة، ومنها ما هو «داخلي» مجملة في الاختلافات الداخلية التي وقعت بين المذاهب والفرق الإسلامية نفسها، والتي دافع كل منها عن موقفه وتفسيراته وتبريراته ومبادئه العقدية والفكرية التي انطلق بها من مستويات فهمه. فتشكّلت هذه الاختلافات مع مرور الوقت بصيغة مقولات ثم تطورت هذه المقولات لآراء ومذاهب كلامية شكلت ما يعرف الآن باسم «علم الكلام».

وبغض النظر عن الموقف من هذه المذاهب والفرق؛ فإن السؤال الذي يُطرح الآن على طاولة هذه الورقة البحثية لاسيما مع تغير الزمان والظروف والأحوال ودخول مناهج جديدة في التفسير مغايرة للتصورات التقليدية هو: هل مازال «علم الكلام» بصيغته القديمة هو الصيغة المناسبة لمثل هذه التطورات المشهودة؛ أم أن الزمان والمكان والحال يفرض كل منهم موضوعات جديدة، وصيغة حديثة، ومقولات وأفكار ومفاهيم مناسبة للزمان والمكان؟

ومن ثم، يتمحور موضوع هذه الورقة حول الإجابة على هذا السؤال، وبالتالي فهي تحاول أن تقدم إسهاما لمحاولة وتطور علم الكلام القديم من حيث «المنهج/الأسلوب» ومن حيث «المحتوى/الموضوعات».

فمن حيث «المنهج»؛ فإن منهج علم الكلام القديم منهجا «دفاعيا/ تبريريا» ملتزما بذلك على طول خطه الفكري، ومن ثم، فهو بذلك يُعد وسيلة غير ناجزة للبحث والمعرفة، ولا يتغيا

(*) باحث دكتوراه، جامعة الفيوم.

أية غاية وراءه سوى الدفاع عن العقائد، والبحث العلمي لا يفترض فكرة مسبقة قبل البحث، فلا يدافع أو يهاجم، إنما هو عرض موضوعي ونقاش علمي. وعليه فإن كان علم الكلام القديم يبحث له عن مكان وسط الحقول الفلسفية الحديثة؛ وجب عليه أن يتحول منهجه من «الدفاع والتبرير» إلى «البحث المحايد»، ومن «الدوجماطيقا» إلى «التعددية»، ومن «العقيدة» إلى «الشك». من «القطع» إلى «التأويل»، ومن «الأيديولوجيا» إلى «الأبستمولوجيا».

أما من حيث «المحتوى والموضوعات» فإن موضوعات مثل الذات والأسماء والصفات، وهل الصفة عين الذات أم زائدة عليها؟ كلها موضوعات لم تعد مطروحة على طاولات البحث أو النقاش الآن.

فثمة موضوعات يمكن لها أن تحل محل الموضوعات القديمة تطرحها الورقة مثل: (منشأ لدين، حاجة الإنسان إلى الدين، التجربة الإيمانية، لغة الدين، الهرمنيوطيقا والتأويل، العقل والوحي، الدين والأخلاق، التعددية الدينية، تطور الدين، الدين والعلم، الإنسان والحرية الإنسانية، ..).

وبناءً عليه، فإن هذه الورقة تسعى لتحويل علم الكلام إلى بحث عقلي وفلسفي حر محايد بدلا من الدفاع والتبرير، يكون موضوعه الدين وما يتعلق به من قضايا غير القضايا القديمة. وأهم المحاور التي تناقشها الورقة هي:

- ماهية علم الكلام.
- موضوعات علم الكلام وضرورة التحول.
- من علم الكلام إلى فلسفة الدين.
- موضوعات فلسفة الدين.
- الدين من الاحتكارية إلى التعددية.
- فلسفة الدين وسؤال التجربة الدينية.

في محاولات تجديد علم الكلام

ليست هذه الورقة إسهاماً تفصيليا كما يبدو في محاولاتٍ كانت وما زالت على ساحةِ الفكرِ العربي لمحاولةِ تجديدِ علمَ الكلام، و إنما هي محاولة، أو اقتراب، أو تلمس طريق، نحو تحويل علم الكلام إلا فلسفة دين. ومن أهم هذه المحاولات؛ محاولةُ «طه عبد الرحمن» في أقصى المغرب العربي، ومحاولة «الأخوة في إيران والعراق» في أقصى المشرق العربي، وثالث هذه المحاولات هي محاولة في الوسط لأستاذنا الدكتور حسن حنفي في مصر، لكن محاولةَ «طه عبد الرحمن» في تجديد علم الكلام اعتمدت على تحليلِ والخطاب الكلامي، والبُنى الحَجَاجيّة لعلم الكلام وآداب المنظرة بشكل منطقي أكثر مما طرحت بدائل أو أن تقدم حلولا[١].

أما محاولةُ الإخوةُ في إيران والعراق فقد جاءت أغلبُها تحت عنوان «علم الكلام الجديد» وهي محاولةٍ أشبهُ بتجديدِ الخطابِ الديني، تجديدٌ في الشكلِ و يبقى المضمونُ كما هو، تجديدٌ في الأسلوبِ و يبقى الموضوعُ كما هو، تجديدٌ في إلهامشِ و يبقى المركزُ كما هو[٢].

وأما محاولة أستاذنا الدكتور حسن حنفي والتي جاءت في أربعة أسفارٍ كبار تحت عنوان «من العقيدة إلى الثورة» حاول فيها أن ينقل العقيدة الي الثورة، أو بعبارة أخرى، أن يُعنى علمُ الكلام بالدفاعِ عن الوطنِ والأرضِ بدلاً من الدفاعِ عن الدينِ والعقائدِ. لكن في الواقع هذه محاولة تُخرج علمَ الكلام إلى حيزٍ آخر بعيدٍ عن ساحة الفكر، فمسائلِ الأرضُ والوطنُ ليست من مهمة علوم الدين أو الفكر، إنما شأنها شأن علوم السياسةِ والاقتصادِ، وبالتالي فهي محاولة تحلق بعلم الكلام إلى أفق بعيد عن الفلسفة والفكر[٣].

وباعتبارنا مهمومون بأزمتنا الحضارية المؤسفة، فإن هذه الورقة أزعم أنها محاولة تستوعب الشكل والمضمون معا.. ولذا فهي اسهاما في ما أسميه (توجيه) الذهن نحو طريق ربما يتم بلورة في المستقبل، أو كوضع نظرية أو منهجية جديدة مطروحة كشكل من أشكال التجديد،

(١) انظر طه عبد الرحمن «في أصول الحوار وتجديد علم الكلام»، المركز الثقافي العربي، المغرب.
(٢) انظر حسن يوسفيان «علم الكلام الجديد»، مركز الحضارة تجديد الفكر الإسلامي، بيروت.
(٣) انظر حسن حنفي: «من العقيدة إلى الثورة»، مكتبة مدبولي، القاهرة.

لا تهـدف هذه المحاولة إلى بلورة الإيمان والاعتقـاد؛ إنما تهدف إلى بلورة ابستمولوجيا جديدة، تساهم في الوعي بالذات والحوار مع الآخرة بشـكل معاصر، بدلا من الردود الصارمة والعنيفة التي يستعملها علم الكلام كآلية منهجية له.

فانطلاقا من تاريخه المسائل الاعتقادية وتطور الدين، لم تعدل كل المسائل القديمة مقبولة في الوعي العقدي عند الناس، كان البحث عن تحليلات عقلية وتفسيرات منطقية لهذه المسائل الاعتقادية ضرورة منهجية وموضوعية. ومن ثم كانت هذه الورقة نتاجا لهذا الإلحاح كإلحاح المريض الباحث عن طبيب، أو المتوجع الباحث عن تؤدة.

ماهية علم الكلام

علـم الكلام كما يعرفه الفارابي: «هـو ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحـدودة التي صرح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل»[١]. أو هو كما يصفه عضـد الدين الإيجي المتكلم: «هو علم يقتدر معه إثبات العقائـد الدينية بإيراد الحجج، ودفع الشـبهات. والمـراد بالعقائد؛ يقصد بها نفـس الاعتقاد، والمراد بالدينيـة، أي المنسوبة إلى دين محمـد»[٢]. موضوعـه: هما يتعلق بإثبات العقائـد الدينية. فائدته: يزيد المؤمن يقينا، ويرشـد المستبشرين بإيضاحه الحجة، وحفظ قواعد الدين من الشبهات[٣].

وظاهـر من تعريف علم الكلام أنه يتضمن أن المتكلـم يتخذ العقائد الدينية قضايا مسلـماً بها ثـم يستدل بعد ذلك عليهـا بالأدلة العقليـة، ولذا يسمى هذا العلـم أيضا بعلم «أصول الدين»، لأنه يتعلق بالأحكام الأصولية أو الاعتقادية، ويسمى علم الكلام أيضا «بالفقه الأكبر» في مقابل الفقة الأصغر، ويسمى «الأصول» في مقابل الفقه الذي يبحث في الفروع.

أما التفرقة بين علم الكلام والفلسفة؛ قد أشار ابن خلدون اليها بقوله: واعلم أن المتكلمين يستدلـون في أكـثر أحوالهما بالكائنـات وأحوالتها على وجـود الباري وصفاتـه، وهذا النوع من الاستدلال هو استدلالهم غالبا، وحتى إذا نظر المتكلم في الموضوعات الطبيعية؛ فإنما ينظر

(١) الفارابي: إحصاء العلوم، مركز الإنهاء القومي، بيروت، ١٩٩١، ص٣٩.
(٢) عضد الدين الأيجى: المواقف، عالم الكتب، بيروت، ص ٧.
(٣) انظر سابق، ص ٨.

فيهـا من حيث أنها تدل عـلى الفاعل أو الموجد، أما نظرة الفيلسـوف في الإلهيات؛ فهو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته[١].

فمقتـضى علم الكلام يكون عـلى قواعد «الشرع»، وتقتضى الفلسفـة تكون على مقتضى «العقـل»، فالمتكلم يستنـد إلى ما جاء به الدين من اعتقادات، ثم يلتمـس الحجج العقلية التي تدعمهـا، أمـا الفيلسوف، فيبحث بعقلة، و يرى ما توصل إليـه بالدليل دون نظر إلى ما جاء به الديـن، فالمتكلم يعتقد ثم يستدل، أما الفيلسوف فيستدل ثم يعتقد، بيد أن هذه التفرقة لا تمنع القول باختلاط علم الكلام بالفلسفة[٢].

عوامل نشأة علم الكلام

١ ـ عوامل خارجية:

نقصـد بالعوامل الخارجية أي الخارجة عن الثقافة الإسـلامية، حتى وان كانت عربية، فهنـاك صورة نراها مهمة لوضح الشـكل الـذي اضطَر المسلمون إلى علـم الكلام اضطرار لدفـاع عن دينهم، فيحـكي التاريخ أن ملك السند قد أرسـل رجلا من السمنيـة (= البوذية) إلى هارون الرشيد، فقال له، إنك رئيس قوم لا ينصفون، و إن كنت على ثقة من دينك فوجّه إليّ مـن أناظره، فـإن كان الحق معك؛ اتبعنـاك، وان كان معي اتبعتني. فأرسـل إليه هارون الرشـدي «مُحدثا»، فلما وصـل إلى الهند أكرمه الملـك، وأتى بعالم (بـوذي) ليناظره، فسأله: أخبرني عن معبودك، أهو قادر على أن يخلق مثله؟ فقال المحدث هذه مسأله من علم الكلام، وهو بدعة، وأصحابنا ينكرونه، فصرفه الملك، وأرسـل إلى الرشـيد بالأمر، فاسـتاء وغضب وقـال: أليس لهـذا الدين من يناضل عنـه؟ فقال أحد رجال حاشـيته، بلى يـا أمير المؤمنين، هم الذين نهيتهم عن الجدال، والذين أودعتهم في السجون، فأطلق الرشيد سراحهم ليتنشروا في الأرض دفاعا عن الإسلام[٣].

توضح القصة - إن كانت صادقة - ورمزيتها - إن كانت غير ذلك_ كيف كان علم الكلام

(١)أحمـد محمـود صبحـى، في علـم الكـلام، دار النهضـة العربيـة، بـيروت، ط ٥، ١٩٨٥، ص ١٧، نقـلا عن ابن خلدون: المقدمة، ص ٣٢٧.
(٢) السابق نفسه، ص ١٨.
(٣) السابق، ص ٣١.

بمثابة حائط الصد ضد شبهات وتيارات الآخر، القادمة من خارج البيئة أو الثقافة. بيد أن هذه العوامل الخارجية تضافر معها عوامل داخلية أخرى.

٢ ـ عوامل داخلية:

وهي نشأة الفرق الإسلامية التي انبثقت مع بدايات البداية الأولى بعد وفاة النبي، فبرزت عدة فرق مثل الشيعة والسنة والخوارج ومعتزلة وأشاعرة وماتريدية وغيرهم مازال موجودة حتى اليوم.

ويفجعنا القول بأن الانشقاق المذهبي القائم بين المسلمين من سنة وشيعة وخوارج هو اختلاف سياسي في جوهره، بيد أن المسلمين الأوائل كانوا لا يفرقون بين ما هو ديني وما هو سياسي، فمن الأسباب التي يحدثنا بها التاريخ عن بداية الخلاف أنه كان بعد وفاة النبي واختلاف المسلمين على الخلافة في السقيفة، بيد أن الأمر تم تداويه وظل الأمر هكذا حتى موت عثمان وجاء الخلاف بين علي ومعاوية ثم معركة الجمل وصفين، ثم كانت كارثة كربلاء، ثم الحكم على فاعل الكبيرة ومفهوم لإيمان، ثم ظهور واصل ابن عطاء، ثم ظهور المعتزلة، ثم القول بالمنزلة بين المنزلتين والقول وقضية خلق القرآن، حتى تبلور علم الكلام بالشكل الذي عليه الآن من ردود واعتراضات بين هذه الفرق والمذاهب.

موضوعات علم الكلام وضرورة التحول

لم نشأ في بحثنا هذا أن نسرد كلاما عن نشأه علم الكلام أو موضوعه، وإنما رغبةً في أن نطل إطلاله سوف تخدمنا لمعرفة الظروف التي أسهمت في تشكل علم الكلام القديم، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأن الظروف اليوم قد اختلفت، فمن الواجب أن تكون هناك تشكلات أخرى مختلفة عن علم الكلام في القديم، مراعاة للزمان والمكان والوقائع والحداث، فهل نظل نكرر حجج القدماء في الواجب والممكن والذات والصفات مرة أخرى!!، أننا إن فعلنا ذلك فإننا نعيد أزمة الصراع القديم بين المذاهب والفرق الكلامية من جديد، إضافة على ذلك يجب أيضا أن نعيد الزمان والأحداث التي مضت مرة أخرى، وليس ذلك في حاجة إلى إثبات استحالته، إذ هو بديهي وواضح بنفسه.

إن الطبيعيات القديمة لم تعد معتبرة في الحقل العلمي، وطبيعيات علم الكلام لم يعد يؤخذ

بهـا، فحتـى نظرية كوبرنيكوس، فبعـد النسبية أضحى العلم التجريبى هـو صاحب الكلمة الفصـل، أما نظريات علم الكلام التي كانت تستند على النظر والتأمل في الطبيعيات أصبحت كلام نظرى ليس له مكان في واقع الحقل العلمي الذي أضحى الآن يأخذ بالنسبية.

فـإذا أخذنا مثالاً لندرك كيف آلـت المعرفة في الطبقات إلى العلـم التجريبى وهو نظرية الخلـق، خلق الإنسـان، إن العلم يرى أن التطـور تعمها الكبير من الأدلة عـلى صحتها، وربما المستقبـل يكشـف الناضجة ذلك، بينـما علم الكلام مـا زال يبادل مقدما قول هـذه التغطية، والكلمة النصل أصلا هي للعلم لا للكلام.

لقـد ألف الرازى كتابا في علم الكلام أسـماه (الأربعين في أصـول الدين) وهو عبارة عن أربعين مسألـة في علم الكلام، وبالنظر والإحصاء إلى هذه المسائل، وجدنا أن خمس وعشرين مسألة تتكلم عن الله وصفاته وأربعة مسائل في النبوة، وثلاثة في المعاد، وثلاثة في أفعال العباد والحسن والقبح، والباقى موزع على مسائل أخرى مختلفة، وبمتابعة النظر إلى هذه النسب نجد أن أكـثر من ٦٠٪ مـن مسائل علم الكلام تدور حول ذات اللـه وصفاته، أي أن أغلب مسائل علم الكلام تدور وتناقش غيب، وهذا الغيب قد أخبر عن نفسه بأنه «ليس كمثلة شيء»!!.

يقـدر بنـا أن نقول أن مـن أهم الانتقادات التـي وجهت إلى منهجية علـم الكلام؛ مسألة «قيـاس الشـاهد على الغائـب»، وبالتـالى فالغيب نقلى وليـس عقلي، نعم هو عقـلي من حيث الإثبـات والنفـى والتصور الكلى، أما من حيـث التفصيل والتفريع الذي نـراه في علم الكلام فلا أعلم إلى ما يستند رجل الكلام على كل هذ التفصيلات الرتيبة، فيقول «هل الله يعلم ذاته» و«هل الصفات عين ذاته أم زائدة» وهكذا! !

النـص كلام، والكلام لغة، واللغـة كلمات والكلمات تتعدد الأفهـام في فهمها وتفسيرها من حيث، السياق والسباق واللحاق، والأسلوب والاستعمال، والمطلق والمقيد، والعام والخاص، والمجمل المفصل، والناسـخ المنسوخ، والمكي والمدني، ولن تخرج بفهم يتفق عليه المعنيون بمثل هذا حتى يلج الجمل في ثم الخياط.

بينـما نـرى المسائل الكلاميـة، تفصل تفصيلا مملا في هـذه الغيبيات، وكأنهـا تراها واقعا مشـاهدا تـم البت فيه، فيفرعـون و يفصلون، فهو ليـس في مكان ولا جهـة، وفي أنه يمتنع أن يكـون محـلا للحوادث، وأن ذاتـه لا تحمـل في شيء، وأن كونه قادرا عالما مريـدا، حيا بصيرا

سميعا، متكلما باقيا مريدا.. إلخ من التفصيلات الموغلة في عالم من المفترض أن غيبا، أي غائبا عن الحواس.

من علم الكلام إلى فلسفة الدين

فلسفة الدين تعني التأمل الفلسفي حول الدين، لذلك فهي «فلسفة» في المقام الأول، أي أنها من المفترض أن تتحرر من النزاعات والانحيازيات العقدية والأيدولوجية، وتتسلح بمنطق العقل في البحث، فبالمختصر: فلسفة الدين ترد الدين إلى العقل، أما علم الكلام يرد العقل إلى الدين.

ولهذا فإن المتكلم يلجأ إلى عدة طرق للدفاع والتبرير، أو إن شئت قلت لتأكيد وجهة نظره والدفاع عن عقيدته، منها:

١- طريقة «التمانع»: وفحواها؛ إبطال اللازم بإبطال الملزم.

٢- كذلك يعتمد بعض المتكلمين على «التأويل» كطريقة لرفع التعارض الظاهري بين النصوص.

ولذلك رأينا معظم بحوث علم الكلام كانت على شكل معارك بين الفرق، فالأشاعرة مثلا يطرحون مسألة تتناولها المدرسة الاعتزالية بالتفنيد والرد، وتكون المعركة دائما على ساحة الدفاع والرد، بحيث ينشغل كل فريق بالرد على الآخر ومن خلال هذه التنظيرات ينصب كل فريق الفخاخ للآخر، و إيقاعه في دائرة الإفحام، وبالتالي تضيع المنهجية العلمية، والبحث الموضوعي ووسط هذه المحاجة.

فهل رأينا مثلا في علم الكلام متكلما واحدا اعترف بقوة دليل الآخر، فتنازل له عن المسألة لأنه تبين له فيها صحة رأي الطرف الآخر؟! لا، ولن تجد، لأن علم الكلام كما قلنا قائم على نصرة المذهب، ولذلك تجد الأسلوب المتبع في عرض المسائل هو الأخذ والرد والمنازعة، «فإن قال: كذا، قلنا: كذا وكذا، و إن رد بكذا قلنا: كذا وكذا» وهكذا.

ومن ثم فإن على الجانب الآخر تقبع فلسفة الدين في بحث حر هادئ، فهي: «التفسير العقلاني لتكوين بنية الدين عبر الفحص الحر للدين، والكشف عن طبيعة الدين من حيث هو دين.. ومن حيث هو نمط للتفكير في قضايا الوجود، وامتحان العقائد والتصورات

الدينية للألوهية والكون والإنسان، وتحديد طبيعة العلاقة بين التفكير الديني وأنماط التفكير الأخرى، بغرض الوصول لتفسير كلي للدين، يكشف عن منابعه في العقل والنفس والطبيعة، وأسسه التي يقوم عليها، وطبيعة تصوره للعلاقة بين المتناهي واللامتناهي»[١].

موضوعات فلسفة الدين

قد عرفنا أن موضوعات علم الكلام قد انحصرت في الإلهيات والنبوات والمعاد، تدور كلها في دورات متشابهة، أما فلسفة الدين فهي تناقش موضوعات مطروحة على الساحة النقاشية والتنظير الديني اليوم، والتي منها:

- **ماهية الدين:** ويبحث في مفهوم الدين، مناشئ وبواعث الدين، وأفق انتظار البشر من الدين، وأثر الدين في حياة الفرد والمجتمع، والدين وإنتاج معنى لما لا معنى له في حياة الإنسان، حدود الدين؛ وهل أنّه شامل، أي دنيوي وأخروي، وما حدوده الدنيوية، أو إنّه للآخرة خاصة، مجالات الدين، جوهر وصدف الدين، أو الذاتي والعرضي في الدين، الثابت والمتحول في الدين، تطور الدين.
- **وجود الله:** طبيعة وجوده، براهين وجود الله، صفات الله، أفعال الله، مفاهيم الله والألوهية في الأديان، طبيعة علاقة الإنسان بالله.
- **مشكلة الشر:** كيف أنّ الشر بكافة أشكاله؛ الألم الجسدي، والنفسي، والأذى الأخلاقي، سواء نتج عن الأسباب والكوارث الطبيعية، أو ظلم الإنسان، يطرح بوصفه تحدياً لقدرة الله القادر على كل شيء، ولمحبته ورحمته التي تتسع لكل شيء.
- **الإيمان والعقل والقلب:** هل الإيمان منبعه العقل والقلب معاً، أو العقل فقط، أو القلب فقط؟ وهل يتعزز الإيمان بالعقل، أو أنّ العقل يقوّض الإيمان، كما يشدد على ذلك دعاة النزعة الإيمانية؟
- **التجربة الدينية:** بيان ماهية التجربة الدينية، أنماط التجربة الدينية، إمكانية معرفة صاحب التجربة الدينية بتفسيرها، هل هي عاطفة وشعور بالتبعية للحقيقة الغائية، أو شوق ووجد للحقيقة الغائية، أو هي كشف وإشراق وانخطاف للروح؟ ما الفرق

(١) محمد عثمان الخشت: مدخل إلى فلسفة الدين، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١، ص٣٥.

بين تجربة المقدس وغيره؟ هل هي تجربة حسية و إدراكية؟ هل التجربة الدينية هي حقيقة وجوهر الدين؟

- **المعجزات والكرامات والخوارق:** طبيعتها، أثرها في الإيمان الديني، شيوعها في مختلف الأديان، وهل هي استثناء أو خرق للقوانين الطبيعية، أو أنّها محكومة بقوانينها الخاصة، المحجوبة عن البشر؟
- **الخلود والبعث والقيامة:** مصير الإنسان بعد الموت، مفهوم الموت؛ وهل هو انعدام للشخص البشري، أو أنّه انتقال من نشأة إلى نشأة؟ مفاهيم الموت والخلود والبعث المتنوعة في الأديان، ومفهوم التناسخ في بعض الأديان وعلاقته بالخلود والبعث، مفهوم القيامة والجزاء الأخروي، والخلاص، والنيرفانا.
- **الدين والعلم:** هل ينتميان إلى حقل واحد، أو أنّ كلاً منهما ينتمي إلى حقل مستقل؟ هل الدين يتغذى و يترسخ بالعلم؛ أي رغم أنّه بموازاة حقل العلم، لكن العلم يدعم الدين، و يضيف له على الدوام مع تقدمه ـ براهين وتفسيرات وآفاقاً جديدة؟
- **المعرفة الدينية:** هل المفاهيم الدينية ذات معنى، أو أنّها تفوق المعارف البشرية وتختلف عنها؟ ما العلاقة بين المعرفة الدينية والمعارف البشرية؟ هل المعرفة الدينية ثابتة أو متغيرة؟ هل المعرفة الدينية تتطور وتتكامل تبعاً لتطور وتكامل المعارف والعلوم البشرية؟
- **الدين والأخلاق:** هل الأخلاق تنشأ من الدين، أو ينشأ الدين من الأخلاق، أو أنّ أحدهما جزء من الآخر، أو لا علاقة بينهما، أو أنهما يلتقيان أحياناً في موارد، فيما يفترقان في موارد أخرى؟
- **التعددية الدينية:** هل الأديان تجلٍّ متنوع لحقيقة الله الواحدة، بمعنى أنّ هناك حقيقة تتعدد السبل إليها تبعاً لتعدد وتنوع الأديان، ومن ثم فالكل مشمولون بالنجاة والخلاص، أو أنّ هناك ديانة واحدة حقة وما سواها باطلة، فمن لا يعتنقها لا أمل له بالنجاة؟ وهل التعددية الدينية هي تعددية على مستوى المعرفة، أو تعددية على مستوى النجاة، أو تعددية على مستوى التعايش؟
- **لغة الدين:** هل لغة الدين عرفية، بنحو تكون إفادتها للمعاني بأساليب اللغة المتداولة

نفسها في استعمال المجتمعات البشرية للغة، أو أنّها لغة رمزية، كما يقول بول تيليش: «إنّ لغة الإيمان هي لغة الرموز. الإيمان إذا ما فهمناه على أنّه حالة من الهم الأقصى فإنه ما من لغة له سوى الرموز»؟. هل لغة الدين لغة تماثلية كما يقول توما الإكويني؟.. وهنا يجد التأويل له حقلا معرفيا خصبا يتجلي في كثير من أشكاله.

- **الهرمنيوطيقا (= التأويل):** يُعرّفُ الإنسانُ بوصفه «كائناً هِرْمِنيوطيقيّاً»؛ أي هو ذلك الكائن الذي يمكنه، بل يلزمه أن يُترجم الوجود - أي كلُّ ما يقع في أفق تجربته الوجودية - محوّلاً إياه إلى عالَمه الخاص الداخلي؛ لكي يُدرِكه ويفهمه».
- **الوحي والإيمان:** حقيقة الوحي، وهل هو نقل الحقائق الإلهية للبشر، أو هو تجسيد للإله في الإنسان؟ هل الوحي تجربة نبوية خاصة بالأنبياء، أو أنها تتحقق لسواهم؛ بالتسامي والارتياض الروحي، مثلما يعتقد بعض المتصوفة والعرفاء، وهل هذا النوع المكتسب من النبوة ـ حسب تسميتهم ـ هو نبوة إنبائية، أم نبوة إبلاغ ودعوة لله؟.
- حاجة البشر إلى الدين؛ ويتم النقاش فيه من خلال الاجابات على تساؤلات مثل: لماذا نحتاج إلى الدين، هل هي لإشباع المتطلبات الفردية والاجتماعية (متطلبات دنيوية) أم أخروية أم هما معا أم لتنظيم الواقع؟
- هل ثمة بديل عن الدين، وبالتالي هل بالإمكان إيجاد صيغة أخرى تحل محل الدين؟.. وفي هذا الإطار نضرب مثالا؛ «الطمأنينة» التي يوفرها الدين، هل يمكن للإنسان أن يحصلها عن طريق أخر غير الدين، المسيحية تستخدم الاعتراف كوسيلة تشعر المعترف بالطمأنينة وبراحة معنوية كبيرة، لكن هل يمكن لغير الدين أن يوفر مثل هذه الطمأنينة؟
- **علاقة المعرفة بالإيمان:** ويقضى النقاش حول هذه المسألة إلى طبيعة الإيمان، فهل هو حالة نفسية من فئة العلم والمعرفة أم لا؟. وإذا كان الايمان حقيقة مختلفة، فهل يوجد رابط بين الايمان والمعرفة والعلم؟ وباختصار. إدراك العلاقة بين المعرفة والايمان، والعقل والدين؟
- أيضامن الباحث الحيوية التي تتناولها فلسفة الدين، والتعددية الدينية، ودعوى

انحصار الصدق في دين بعينه ونفيه عن غيره، فكل دين يدعى أنه على حق وأن سائر الأديان الأخرى باطلة. فكيف يمكن تجاوز هذا المعوق؟

- حدود التقارب بين الأديان، فهل الأديان مختلفة في الجواهر أم في الأعراض؟ أم أن لها جوهرا واحدا غير أنها مختلفة في الأعراض؟
- ما علاقة الأخلاق بالدين، وفي الإطار ثمة تساؤلات؟

هل الأخلاق نابعة من الدين؟

هل الدين هو قيمة أخلاق في الأساس؟ أي أنه متفرع من الأخلاق؟

هل بين الدين والأخلاق (استقلال أم انسجام)؟

- ما علاقة الدين بتحقيق العدالة والحرية؟

الدين من الاحتكارية إلى التعددية

بعد رحيل الأنبياء عن مجتمعاتهم، ظهرت التجارب الدينية كقراءة للنص الديني الذي جاء به النبي، وتعددت بين أتباع الدين الواحد؛ فتشطى الدين الواحد إلى عدة مذاهب، بل في نفس المذهب الواحد، وهذا بطبيعة الحال ظاهرة طبيعية ومتوقعة، فقراءة النصوص الدينية ومحاول استنطاقها وفق معطيات علم الأديان والعقائد والفقه تؤدي بالضرورة إلى اختلاف الرؤى بين أتباع الشريعة الواحدة، وبينهم وبين باقي أتباع الشرائع الأخرى.

لسنا هنا بصدد بحث استردادي لهذه الظاهرة، بل بصدد البحث عن جذور هذه الظاهرة ووضع العلاج لها، وليس ذلك يتم إلا من خلال الفصل بين الدين والمعرفة الدينية، أي الفصل بين المقدس وغير المقدس، فإن ما يوجد بين أيدينا الآن من مدونات في الفقة والأصول والعقائد ونحو؛ هي نتاج لهذه الظاهرة، أي نتاج المعرفة الدينية، أي الدين في بعده البشري، والانتاج البشري يتشكل وفق كل في تجاربه، فكل عالم أو فقيه له رأيه الخاص في الشريعة، وتجربة دينية خاصة به قائمة بذاتها، التي توصل اليه من خلالها اجتهاده والبحث في الأصول لاستخراج الفروع، وهو بالتالي غير قابل لأن يتعبد برأي مجتهد وعالم غيره، بل يرى في نفسه أنه رأيه الأصوب للنصوص الدينية، فيلتزم رأيه واجتهاده، لأنه يرى انحصار الحق عند رأيه،

وهـذا الأمر ليس مقصـورًا على علماء الدين وحسب؛ بل هو أمر مطـرد، ربما في معظم العلوم الإنسانية[١].

وتكمـن المشـكلة هنـا في أن هناك إيحـاءات تشـير إلى أن المعرفة الدينية بالشـكل الذي تـم إيضاحه، هي نفسهـا الدين بذاته، أي أن النتـاج العلمي لعلماء الديـن (= المعرفة الدينية) هـو نفسه الديـن، وليس مرآة له أو انعكـاس له أو قراءة قد تصيب وقـد تخطىء هذا الإيحاء قد يكون ضمن بعض المنتمين للمؤسسة الدينية، ما يسبب الكثير من المشكلات، والتي نراها الآن تظهر في تقديس الذات، ورفض الآخر[٢].

لم يكن علم الكلام بدعا من باقي العلوم الدينية الإسلامية، بل هو الآخر تسند موضوعاته عـلى الدين في الأسـاس، أي على المعرفة الدينية، التي اسـتقت أصولها مـن النص، ومن ثم فهو يعـد إنتاجا لأفهام بشرية، وأفهـام الناس وعقولهم متفاوتة في قبـول مراتب المعرفة، وتحصيل الاطمئنـان، كـما وكيفا، قوة وضعفـا، سرعه وبطئا، وكشـفا وعيانا.. لذا فـإن التعدد في الفهم والتفاوت في العلم سمة إنسانية طبيعة[٣].

فـإذا كان علم الكلام لم يفطن لهذه التعددية الدينية، وما ذاك إلا لأن علم الكلام ينطلق مـن العقيدة أولا، لذا كـان دوجماطيقي المنهج، أحادي الحق، انحصـاري الحقيقة، بينما فلسفة الدين لا تعبأ بالعقيدة كثيرا إلا خلال دراسـته دراسـة موضوعية، فجل همها هو البحث الحر عن وصف للظاهر الدينية و إعطاء تحليلا مقبولا لها.

وثمة نقطة مهمة تتعلق بمسألة التعددية الدينية، وهي؛ أننا لا نريد بالتعددية هنا الانسلاخ عـن الديـن، أو المعتقد الشـخصي أو أن الإنسان يطلب منه أن يغير دينـه أو أن يبدل عقيدته، بـل هـو حر في الثبات على مبدئه ولكـن لا يحق له في نفس الوقت إرغـام الآخرين على التعبد بما يتعبد به هو.

إن التعددية الدينية التي نتقصدها هنا، هي بسيطة بساطة الدين نفسه، فالمقصود هو ترك

(١) على عبد المحسن كريم: قراءة نقدية في فلسفة الدين، حولية المنتدى، العراق، ٢٠١١، مج ٤، ع ٦، ص ١٥٦-١٥٧.
(٢) السابق، ص ١٥٧.
(٣) السابق، ص ١٦٥، ١٦٦.

كل متدين يمارس طقوسه وشعائر العبادية دون رقيب من أحد، لا أجبر أحد على الدخول في دين معين أو أكفره لاختلافه معي.

وفي هذا العصر الذي يعج بالاختلافات ويتفتق بالمعارف المتنوعة لا نظن أن انحصارية المعرفة والحق قادرة على أن تسلك سبيلا لها، بل نرى أنها تصطدم مع أول حركة لها، ولذا لا نرى بديلا عن التعددية الدينية وقبول الآخر في مجال الدين والدراسات الدينية.

فلسفة الدين وسؤال التجربة الدينية

إن التجارب الدينية متنوعة ومتعددة بعدد أفراد البشر، وكل إنسان بما يملك فهما خاصا عن الله تعالى، أو بعبارة عرفانية: إن الله تعالى يتجلى لكل إنسان بنحو من الأنحاء، وكل هذه التجليات محترمة ومقدسة ـ والدين يقرر صحة هذه التجليات بأجمعها[١]، لأن الإمكانية المعرفية توصلت إلى ذلك، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

إن إله العالم عندما خلق البشر وقذف به في أجواء الفكر؛ فإنه خلق له لغات وعوالم مختلفة، وجعل العلل والأدلة متنوعة، وأقام في طريق العقل مئات العقد والمنعطفات الفكرية، وبعث الكثير من الرسل، وأصدر نداءات ذات ألوان متعددة، ومختلفة للبشرية، وجعل الناس شعوبا وقبلائل ليتحركوا لا من موقع التنازع والتخاصم؛ بل من موقع التعارف والتواضع، فالذين يطلبون بتسوية «التعرجات الفكرية» والمذهبية بين الناس؛ عليهم أن ينتبهوا لئلا يقودهم هذا المسلك إلى السقوط في التعارض مع المشيئة الإلهية، ومواجهة الإرادة الربانية[٢].

إن السبب الذي من أجله يدفعنا إلى تأكيد البحث في مسألة التعددية الدينة هي أنها مسألة حيوية جدا، فبالنظر إلى مجتمعاتنا بإمعان، نجد أنها مجتمعات يحركها الوازع الديني كفاعل قوى، بل هو أقوى المقومات التي تدفع الناس وتوجه سلوكهم، إن الدين حاضر في الجماهير، بشكل عام، وفي مجتمعاتنا الشرقية بصورة أكثر خصوصية، والتاريخ يشهد بذلك، فالقتل يحدث باسم الدين والصلب يحدث باسم الدين، والغزو تحت راية الدين، والإصلاح

(١) عبدالكريم سروش، الصراطات المستقيمة، دار الانتشار العربي، ترجمة: أحمد القابنجي، ط١، ٢٠٠٩، ص ٢١٨.

(٢) السابق، ص ٦٩.

أحيانا يستعين بالدين، والشواهد عديدة لا تخفى على ناظر، وليست العبرة في سردها، و إنما العبرة في البحث عن أسبابها ونتائجها.

إنك إن أردت أن تحدث الرجل في مجتمعنا عن أمر بديهي، ربما لا يؤمن لك بها الإ إذا ذكرت له سندا من كلامك من الدين آية أو حديث! فالدين أداة ناجزة في وعي الناس، تسوقهم نحو التوجه في الحياه، الأمر الذي يدفعنا كل مرة إلى محاولة الإصلاح العام من خلال تعديل مسار المفاهيم الدينية، إذ به يمكن محاولة تعديل مسار الناس، وهذا نحدثه في شكل من أشكال عقلنة الدين / تأويل الدين / فلسفة الدين. ... سمها ما تشاء، لابأس من اختلاف المفاهيم، طالما أنها محكمة المعاني.

إن غرض أي علم هو تبسيط الحياه، لا تعقيدها، وبالنظر إلى علم الكلام نجده يزيد المسائل الاعتقادية تعقيدا، فلن يستطيع عامي أن يقرأ في علم الكلام و يفهم ما المقصود منه، ثم نقول له هذا دينيك. فعلم الكلام كجزء من المنظومة المعرفية نشأت في ظروف تاريخية معينة، وهي طروحات مناهضة، وبالتالي فقد تشكلت في لحظة انفعال وغضب بين الخصم والخصم، بين المذهب والمذهب، بين الفرقة والفرقة، لا اتزان وتريث.

فعلم الكلام تأسس للدفاع عن العقيدة، استمد أصوله المنهجية من المنطق الأرسطي والفرضيات الجدلية، فعقد البسيط، وحول التوحيد إلى هو بداهة الفطرة إلى مقولات يصعب على العادي فهمها، وليس معنى ذلك أن علم الكلام لم يقدم شيئا مطلقا، كلا!، إنما قدم خدمة جليلة للحفاظ على الثقافة والهوية في وجه الغزو الثقافي الأخر، لكن؛ وما بعد لكن - هو المهم - لكل واقع متطلبات، ولكل مقام مقال، أي أن هناك الأن حاجة إلى انبثاق قضايا تتماهى مع مجريات الواقع الآني و يناقش هموم الناس، و يضع ليها الأجوبة الشافية مع ما يتوافق مع اللحظة الزمانية تاريخيا وجغرافيا.

فلسفة الدين من الفلسفات المضافة، كفلسفة التاريخ، وفلسفة اللغة، وفلسفة التربية.. إلخ، وهي تعني التفكير الفلسفي في الدين وعقلنة المعتقد الديني.

فيلسوف الدين غير المتكلم، لأن المتكلم يتسلح بمواقف وقناعات قبلية، بينما يتحرر الباحث في فلسفة الدين من أيه قناعات سابقة، بمعنى أنه يدرس الدين من الخارج، خلافا للمتكلم الذي تتحكم بأحكامه نزعاته الدينية الخاصة.

وغاية فلسفة الدين كأى فرع آخر من الفلسفة، تحري الحقيقة فقط، ولذلك نرى فيلسوف الدين بما أنه فيلسوف، لا يلج فلسفة الدين لإثبات أو نفي الدين أو المذهب الذي أمامه أو يتعرض له، كما أن فيلسوف الدين سواء كان مُعتقدا بدين أو مذهب خاص، فهو لا يتبنى موقفا حيال ذلك، حتى ولو كان معاندًا للأديان؛ فإنه بما هو فيلسوف؛ فهو لا يقتحم هذا الميدان لدفاع أو تبرير، بل لشرح وتحليل المعتقدات الدينية.

ففيلسوف الدين يريد فقط أن يبين ما الذي يمكن قوله وما لا يمكن بشأن حقيقة الدين والظواهر الدينية من منظور عقلي، فهو يريد أن يكشف؛ - إذا خرج من موقفه الدعم للدين أو كان معاندا، ونظر بعقلانية للدين ومظاهرة - ماذا سوف يرى؟

ليس مهمًا لفيلسوف الدين بأن ما يره هل يناغم أحاسيسه وعواطفه ويلبى طلباته، أم لا، بل المهم بالنسبة له هو مايره قدر الإمكان يكون مطابقا للواقع ويتمتع بدرجة من الحقيقة[1].

من مشكلات علم الكلام أيضا: الإيمانُ بالحقيقةِ الدينيةِ الواحدة، ولقد تسببَ ذلك في نشوبِ معاركَ فكريةٍ طاحنةٍ. فالأشعري يدافعُ عن أشعريته، والمعتزليّ يدافع عن اعتزاله، وكذلك الماتريدي، هذه المعارك لم تأتْ للأمةِ بخير..

هذه المشكلة تعالجُها فلسفةُ الدين، فبينما علمُ الكلام لا يؤمنُ إلا بحقيقةٍ دينيةٍ واحدةٍ؛ نرى أن فلسفةَ الدين تؤمنُ بالتعدديةِ الدينية، بل وتؤكد علها، وما أحوجَ واقعنا اليوم إلى التعدديةِ الدينيةِ بل والفكرية أيضا.. فالدين نص، والنص به محكم ومتشابه، وأكثر من ٨٠٪ في المئة من النصوص متشابهة، أي تحمل أكثر من معني، بنظرة صغيرة في تفسير مفاتيح الغيب للرازي لترى تفسير الآية الواحدة أحيانا يصل إلى خمسة عشر قولا قولا.. «فرأيي صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأٌ يحتمل الصواب»، أمّا في علم الكلام «فعقيدتي صوابٌ لا تحتمل الخطأ، وعقيدة غيري خطأٌ لا تحتمل الصواب».. ومن ثم نشبتْ أغلبُ الصراعاتِ المعاركَ الكلامية بين جبهات في «الداخل»، بين المعتزلة والأشاعرة والماتريدية والحشوية..

في النهاية؛ فيلسوف الدين يريد أن يكتشف درجة، عقلانية أو بطلان كل واحدة من التعاليم الدينية والمذهبية، وهنا ثمة مفارقة هامة؛ هي أن من هذه الزاوية السابقة التي ينشدها

(١) مصطفى مليكان: فلسفة الدين، المجال والحدود، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، السنة ١٦، عدد ٤٩- ٥٠، ص ١٢ -١٣.

فيلسوف الدين، نجد أن فلسفة الدين تفترق عن «تاريخ الأديان» و«علم الأديان المقارن» و«علم النفس الديني» و«علم الاجتماع الديني»، لأن هذه كلها وان كان غايتها دراسة موضوعات متعلقة بالدين، لكن الحقيقة التي لكن الحقيقة التي تنشدها ليست اختبار صدق أو كذب التعاليم الدينية، بل حقائق أخرى في مجال الظواهر الدينية.

بالطبع هذه كلها رصد لمحاولة استخلاص المفهوم الذي تتبلور عليه فلسفة الدين، ولكي نضع الفوارق والحدود التي نفصل بها بين فلسفة الدين عن غيرها من المعارف الدينية والمعارف الدينية والمناهج الكلامية الأخرى، ولكي نشير إلى ضرورة التحول من «علم الكلام» إلى «فلسفة الدين».

خاتمة

يبدو أن الدين قديما كان يرتّب ضروریاته الخمس على أن الدين أولا كالتالي: (الدين ثم النفس ثم العقل ثم المال ثم العرض) أي أنه كان يقدم الدين على النفس، أما «فلسفة الدين» فهي ترتب هذه الكليات على اعتبار «النفس» أولا قبل «الدين»، فالدين جاء للإنسان، وقديما قال المعتزلة «العقل أول الأدلة والشريعة مصلحة العباد»، وتطبيقا لهذا المبدأ نرى أن فلسفة الدين أصبحت ضرورة كي تحل محل علم الكلام القديم بهذا الشكل المنطلق العقلي أولا، أي أن العقل سابق على النص، والإنسان سابق على الدين، و إنما جاء الدين لضبط حركة المجتمع، أي لمصلحة الإنسان، أي أن جود الإنسان سبب لوجود الدين، وليس الدين سببا لوجود الإنسان، والعلة تسبق المعلول ضرورة.

وعلم الكلام: في سعيه دائما، يرمي إلى إما إثباتِ العقائدَ الدينية أو الدفاعِ عنها، أما فلسفةُ الدين: فقد ظهرت كمصطلحٍ في القرن الثامن عشر على يد «هيجل» في محاضراته «محاضرات في فلسفة الدين» وهي نوعٌ من الفلسفةِ تعتمدُ العقلَ في تحليلِ وتفسيرِ المعتقداتِ والظواهر الدينية. والقاسم المشترك بين علم الكلام وفلسفة الدين؛ أن كلاهما يبحث في القضايا الدينية والمسائل الاعتقادية

لكن فلسفةَ الدينِ ليست تتوخّى الدفاعَ عن المعتقداتِ وتبريرِها، مثل علمِ الكلام، و إنّما تهتم بشرحِ وبيانِ القضايا الدينية، وبالتالي « فهي التفكيرُ الفلسفيُ في كلِ ما يتصلُ بالدينِ شرحاً وتفسيراً وتحليلاً».

وبهذا كله فإن الممارسة الكلامية لم تعد مجدية على النحو الذي كانت عليه في السابق، لأنها لا تتوخي طلبَ المعرفة، بل تدافعُ عن موقفٍ عقديٍ مسبق، أما فلسفة الدين فهي ليست كذلك، لأن فيلسوفَ الدين لا يتبنى موقفًا حيال عقيدةٍ ما، إنما يكشفُ عن مدى معقوليةِ هذه العقائد والقضايا الدينية..

وبالتالي: فإذا كان علمُ الكلام يقدم «تبريرا»، أما فلسفة الدين تقدم «تفسيرا».. وإذا كان علمُ الكلام يقدم «منجزا دفاعيا».. فإن فلسفة الدين تقدم «منجزا تفسيريا».. وإن كان علمُ الكلام يهدف إلى «حماية الدين وصيانته»، فإن فلسفة الدين «تعيد فهم الدين من جديد بطريقة فلسفية».. وإذا كان علمُ الكلام «يرد العقل إلى الدين»، فإن فيلسوف الدين «يرد الدين إلى العقل». وما أحوجنا!

وأخير: وإذا كان علمُ الكلام ينطلقُ من مبدأ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فإن فلسفة الدين تنطلق من ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

قائمة المصادر والمراجع

١- الفارابي: إحصاء العلوم، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩١.

٢- عضد الدين الإيجى: المواقف، عالم الكتب، بيروت، دت.

٣- أحمد محمود صبحى: في علم الكلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط ٥، ١٩٨٥.

٦- محمد عثمان الخشت: مدخل إلى فلسفة الدين، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١.

٥- علي عبد المحسن كريم: قراءة نقدية في فلسفة الدين، حولية المنتدى، العراق، ٢٠١١، مج ٤، ع ٦.

٧- عبدالكريم سروش: الصراطات المستقيمة، دار الانتشار العربي، ترجمة: أحمد القابنجي، ط١، ٢٠٠٩.

٨- مصطفى مليكان: فلسفة الدين، المجال والحدود، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، السنة ١٦، عدد ٤٩- ٥٠.